البَابُ التَاسِعَ عَشَرَ

من الأدب ترك الطلب

[ربما دهم الأدب على ترك الطلب] .

قلت : الظاهر أن رب هنا للتكثير ، لأن الغالب على العارفين وأهل الفناء السكوت والسكون تحت مجارى الأقدار ، فصدور الطلب منهم قليل ، لأن العارف فانٍ عن نفسه غائب عن حسه ، ليس له عن نفسه أخبار ، ولا مع غير الله قرار ، فلا يتصور منه سؤال ولا فوات مأمول :

« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ » .

الأشياء تشتاق إليه وهو غنى عنها :

« اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إلى عَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ » كما فى الحديث .

والحاصل : أن العبد مادام غائبًا عن نفسه فإن فى شهود ربه منقطعًا عن حسه لا يتصور منه طلب أصلا ، إذ الطلب يقتضى وجود الاثنينية ، والغرض أنه غريق فى بحر الوحدة فطلبه حينئذ سوء أدب فى حقه ، فإن رد إلى الشعور بنفسه وهو مقام البقاء قد يتصور منه السؤال على وجه العبودية لا على وجه الاقتضاء والطلب كما تقدم .

ثم بين مستندهم فى ترك الطلب فقال :

[اعتمادًا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسألته] .

قلت : أما الاعتماد على القسمة الأزلية فقد تقدم الكلام عليها فى الحكم قبل هذه ، وأما الاشتغال بالذكر عن المسألة فقد تقدم قريبًا فى الحديث : « من شغله ذكرى عن مسألتى » .

وقال الواسطى رضى الله عنه : ما جرى لك فى الأزل خير من معارضة

الوقت ، يعنى بالطلب للحظ .

وقال القشيرى : إذا وجد فى قلبه إشارة إلى الدعاء دعا ، كما إذا وجد نشاطًا أو انبساطًا للدعاء فالدعاء أولى ، وإذا وجد فى قلبه قبضًا فالسكوت أولى .

وقال بعضهم : ما سألت الله تعالى بلسانى شيئًا منذ خمسين سنة ولا أريد أن أدعو ولا أن يدعى لى اهـ . وذلك لأن الله سبحانه ليس بغافل حتى يذَكّر ، بل هو عليم بخفيات أمورك فيأتيك منها ما قسم لك ، كما بين ذلك بقوله :

[إنما يذكَّر من يجوز عليه الإغفال] .

وقد قال تعالى :

(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[1] ، (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)[2] .

ولا يحتاج إلى تنبيه لأنه لا يهملك فيما هو من قسمتك كما بينه بقوله :

[وإنما ينبَّه من يجوز عليه الإهمال] .

والحق تعالى لا يجوز عليه الإهمال لكمال قدرته وإحاطة علمه ، ولكن حكمته اقتضت ارتباط الأسباب والعلل ، وتقديم الأشياء وتأخيرها . قال تعالى : (وَكُلُّ شَىء عِنْدَهُ بِمِقْدار)[3] .

فمن كمل يقينه اكتفى بتدبير الحق عن تدبيره ، واستغنى بعلم الله عن استعجاله ، ورضى بتصريف الحق فيما يفعل ، فيكون إبراهيميًّا حنيفيًّا ، ولا شك أن من كان على ملة إبراهيم عليه السلام اقتدى به ، وقد كان بين السماء والأرض حين رمى به فاستغنى بعلم الله عن سؤاله ، فكانت حالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فى ذلك الوقت الاستغراق فى الحقيقة ، فلما رد للشرائع دعا فقال : (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى ولِوَالِدىَّ وَلِلْمُؤمِنِينَ)[4] (رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وأَلْحِقْنى بِالصَّالِحِينَ)[5] .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام أكثروا من الدعاء للتشريع والتعليم وإظهار

---

(١) البقرة : ١٤٩ . (٢) الزمر : ٣٦ . (٣) الرعد : ٨ .

(٤) إبراهيم : ٤١ . (٥) الشعراء : ٨٣ .

الفاقات التى هى مواسم وأعياد ، كما أبان ذلك بقوله :

[ورود الفاقات أعياد المريدين] .

قلت : الأعياد جمع عيد : وهو مايعود على الناس بالأفراح والمسرة ، فالعوام فرحهم ومسرتهم بالحظوظ والعوائد الجسمانية ، والخواص فرحهم بإقبال الملك عليهم ووجود قلوبهم ، وصفاء وقتهم من كدرات الأغيار ، والغالب أن هذه المعانى إنما توجد عند الفاقة والحيرة والاضطرار حيث ينقطع حظ النفس فيها ، لأن النفس كلما ضيقت عليها رحلت إلى عالم الملكوت ، وفى ذلك العالم راحتها وفرحها ومسرتها ، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ المأْوَى)[1] .

وهما جنتان معجلة ومؤجلة ، فلأجل هذا آثرت الصوفية الفقر على الغنى ، والشدة على الرخاء ، والذل على العز ، والمرض على الصحة ، لما يحصل بذلك من الرقة والحلاوة ، وكلما ازدادوا فاقة زادهم الله قربًا وولاء .

وكان بعضهم يطوف حول الكعبة ويقول :

مُؤْتَزِرٌ بِشَمْلَتِي كَمَا تَرَى وَصَبِيَّةٌ بَاكِيَةٌ كَمَا تَرَى .
وَامْرَأَتِي عُرْيَانَةٌ كَمَا تَرَى يَامَنْ يَرَى الذِى بِنَا وَلَايُرَى
أَمَا تَرَى مَاحَلَّ أَمَا تَرَى

فسمعه بعضهم فجمع له كسرًا ودفعها إليه ، فقال له إليك عنى ، لو كان معى شيء لما أمكننى أن أقول هذا القول .

وقال أبو إسحاق الهروى رضى الله عنه : من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعًا على سبع ، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير : اختاروا الفقر على الغنى ، والجوع على الشبع ، والدون على المرتفع ، والذل على العز ، والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح ، والموت على الحياة اهـ .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليتحرز من الغنى حذرًا أن يدخله فيفسد

---

(١) النازعات :٤٠ ، ٤١ .

عليه فقره ، كما يتحرز الغنى من الفقر حذرًا أن يفسد عليه غناه ، وأنشدوا فى أعياد العارفين :

قَـالُوا ٠غَـدا العِيدُ مَـاذَا أَنْتَ لابسهُ
فَقُلْتُ خِلْعَـةُ سَـاقٍ حبُّـهُ جُـرَعَـاَ
فَقْـرٌ وَصَـبْرٌ هُمَـا ثَـوْبَـاىَ تَحْتَهُمَا
قَلْبٌ يَـرَى إلْفـهُ الأعْيَـادَ وَالجمعَـا
أَحْرَى المَلَابِسِ أَنْ تَلْقَى الحبِيبَ بِهِ
يَوْمَ التَّزَاوُرِ فى الثَّـوْبِ الذِى خُلِعَـاَ
الـدَّهْـرُ لِى مَـأْثَمٌ إنْ غِبْتَ يَـاأَمَـلِى
وَالْعِيـدُ مَا كُنْتَ مَـرأًى لِى وَمُستمعَـا

وقال آخر :

قَالَتْ هُنَا الْعِيدُ بِالبشْـرى فَقُلْتُ لَهَا
العِيـدُ وَالْبِشْـرُ عِنْـدِى يَـوْمَ لُقْيَـاكِ
الله يَعْلَمُ أَنَّ النَّـاسَ قَـدْ فَـرِحُـوا
فِـيـهِ وَمَـافَـرْحَـتِى إلا بِـرُؤْيَـاكِ

ثم بين وجه كون الفاقة عيدًا فقال :

[ربما وجدت من المزيد فى الفاقات ما لا تجده فى الصوم والصلاة ، الفاقات : بسط المواهب ، إن أردت بسط المواهب عليك ، صحح الفقر والفاقة لديك ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين].

قلت : إنما كان الإنسان يجد فى الفاقة من المزيد ما لا يجده فى الصوم والصلاة ، لأن الفاقة من أعمال القلوب والصوم والصلاة من أعمال الجوارح ، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح . الفاقات قوت الروح ، والصوم والصلاة قوت القلب ، والروح محل المشاهدة ، والقلب محل المراقبة وما بينها معلوم .

قال بعضهم : اعلم أن المدد الذى هو الفتح الربانى إنما يقع فى القلوب الفارغة من العوائق والشواغل . وقد يوجد العبد كثير الصلاة والصيام وباب قلبه مسدود ، لاشتغاله بأمور دنياه وهم الأكثر من الناس . وقد يوجد العبد قليل الصوم والصلاة وباب قلبه مفتوح للعلوم اللدنية ، والتنزلات الفهمية وهم الأقلون من الناس ، وكل العبادات يدخلها الرياء إلا الخمول لكونه لاحظ للنفس فيه اهـ .

وفى بعض الأخبار : « يقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالى لَعَبْدِه : سَبَكْتُكَ بالْفَاقَةِ لِتَكُونَ ذَهَبًا » الحديث .

حكمة الفاقة

قال فى التنوير : اعلم أن فى البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولو البصائر ، ولو لم يكن إلا تذلل النفس وتحقيرها وقطعها من حظوظها ، لكان فى ذلك غاية المطلوب منها . وقد قيل : حيثما وقعت الذالة وقعت معها النصرة . قال الله العظيم :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)[1] .

فإذا أردت أيها الفقير بسط المواهب وورودها عليك ، فصحح الفقر والفاقة لديك فإذا صححت الفاقة والفقر عندك فاستعد لكتب المواهب ، فإنها ترد عليك كالسحاب وقد قلت فى هذا قصيدة سيأتى ذكرها قريبًا إن شاء الله :

وَإنْ تُـرِدَنْ بَسْطَ الْمَـوَاهِب عَـاجِـلًا
فَفِى الفَـاقَـةِ رِيـحُ الْمَـوَاهِبِ يُنْشَـرُ

والمراد بالمواهب : معارف وكشوفات وطمأنينة وحكم وعلوم وأسرار ، ترد على القلوب من خزائن الغيوب ، حال صفائها وتصفيتها من الغيرية ، وأصفى

---

(١) آل عمران : ١٢٣ .

ما يكون القلب حين تذهب النفس ، وذهاب النفس إنما يكون بترك حظوظها ، ولا يتحقق ذلك فى الغالب إلا فى حال الفاقة والفقر ، ولذلك كانوا يفرحون بالفقر ويحزنون من الغنى .

فتح على بعضهم بشيء من الدنيا فقال : هذه عقوبة لم أدر ما سببها : وقال الهروي : الفقر صفة مهجورة ، وهو ألذ ما يناله العارف ، لكونها تدخله على الله وتجلسه بين يديه ، وهو أعم المقامات حكمًا لقطع العوائق ، والتجرد من العلائق ، واشتغال القلب بالله .

قيل : الفقير الصادق لا يملك ولا يُملك . وقيل لسهل رضي الله عنه : متى يستريح الفقير ؟ قال : إذا لم ير فى وقت غير ربه . وقال الشبلى : الفقير لا يستغني بشيء دون الله .

وقال السهروردي فى عواف المعارف : الفقر أساس التصوف ، وبه قوامه ، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر ، لأن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر والزهد ، مع زيادة أحوال لابد منها للصوفي وإن كان فقيرًا زاهدًا . وقال بعضهم : نهاية الفقر بداية التصوف ، لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سنيّ والخروج عن كل خلق دني ، لكنهم اتفقوا أن لا دخول على الله إلا من باب الفقر ، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم .

والتحقق بالفقر : هو الاستئناس به ، والاغتباط بحصوله ، والاستقرار معه ، حتى يكون عنده أحلى من العسل ويكون المال عنده أمر من الحنظل ، فحينئذ تترادف عليه المواهب ، وتتسع له المعارف ، حتى يكون أغنى الأغنياء .

قال بعض الصالحين : كان لي بعض مال فرأيت فقيرًا فى الحرم جالسًا منذ أيام ، لا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة ، فقلت : أغنيه بهذا المال ، فألقيته فى حجره وقلت : استعن بهذا على دنياك ، فنفض بها فى الحصباء وقال لى : اشتريت هذه الجلسة مع ربي بما ملكت ، وأنت تفسدها عليّ ، ثم انصرف وتركني ألقطها ، فوالله ما رأيت أعز منه لما بددها ، ولا أذل مني لما كنت ألقطها ، وهذا هو تصحيح الفقر والفاقة ظاهرًا وباطنًا .

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء أصبح حزينًا ، وإذا لم يصبح عنده شيء

أصبح فرحًا مسرورًا ، فقيل له : إنما الناس بعكس هذا ، فقال : إنى إذا لم يصح عندى شيء فلى برسول الله أسوة حسنة ، وإذا أصبح عندى شيء لم يكن لى برسول الله أسوة حسنة . قلت : وهذه حالة أشياخنا رضى الله عنهم حسبما استقريناه من حالهم .

وقد بلغنى أن شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه كان يشعل الفتيلة وينظر فى نواحى البيت إذا وجد شيئًا أخرجه يتصدق به ويبيت على الفاقة . هكذا كان حاله فى حال تجريده رضى الله عنه : هذا واستشهد المؤلف رضى الله عنه بالآية الكريمة : (إنما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاء وَالمسَاكِين)[1] .

إشارة إلى أن ما يهبه الله تعالى من المواهب والمعارف إنما هى صدقة ومنة لاجزاء على الأعمال والأحوال ، لأن الصدقة لا تكون فى مقابلة عمل : و (إنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِين)[2] .

ثم التحقق بالفقر مجموعة التحقق بأوصاف العبودية ، وهى الذل والعجز والضعف كما بين ذلك بقوله :

[تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، وتحقق بذلك يمدك بعزته ، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته ، وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته] .

قلت : أوصاف العبودية أربعة يقابلها من أوصاف الربوبية أربعة :

أولها : من العبد الفقر ومن الله الغنى .

الثانى : من العبد الذل ، ومن الله العز .

الثالث : من العبد العجز ، ومن الله القدرة .

الرابع : من العبد الضعف ، ومن الله القوة .

والتحقق بالوصف هو التحلى والاتصاف به قلبًا وقالبًا ، ويكون ذلك باديًا بين خلقه ، فلا يتحقق الذل لله حتى يظهر ذلك بين عباده ، فمن أراد أن يمده الله بالغنى به عما سواه فليتحقق بالفقر مما سواه كما قال الشيخ أبو الحسن فى حزبه الكبير : نسألك الفقر مما سواك والغنى بك ، حتى لا نشهد إلا إياك .

---

(١) التوبة : ٦٠ .

(٢) العنكبوت :٦ .

ومن أراد أن يمده الله بالعز الذى لا يفنى ، فليتحقق بالذل لله والتواضع بين خلقه ، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره ، ومن أراد أن يمده الله بالقدرة الخارقة للعوائد فليتحقق بعجزه ويتبرأ من حوله وقوته ، ومن أراد أن يمده الله بالقوة على طاعة مولاه ومجاهدة نفسه وهواه فليتحقق بضعفه ويسند أمره إلى سيده ، فبقدر ما تعطى تأخذ وبقدر ما تتخلى تتحقق ، وبقدر ما تتحقق بوصفك يمدك بوصفه ، وقد كنت قلت فى ذلك أبياتًا وهى هذه :

تَحَقَّقْ بِوَصْفِ الْفقْر فى كُلِّ لَحْظَةٍ
فَمَا أَسْرَعَ الغِنَى إِذا صُحِّحَ الفقرُ
وَإِنْ تُرِدَنْ بَسْطَ المَواهِبِ عَاجِلَا
فَفِى الْفَاقَةِ رِيحُ المَوَاهِب يُنْشَرُ
وَإِنْ تُرِدَنْ عِزًّا مَنِيعًا مُؤَيَّدًا
فَفِى الذُّلِّ يَخْفى العِزُّ بَلْ ثَمَّ يَظْهَرُ
وَإِنْ تُرِدَنْ رَفْعًا لِقَدْرِكَ عَالِيًا
فَفِى وَضْعِكَ النَّفْسَ الدَّنِيَّة يَحْضُرُ
وَإِنْ تُرِدِ العِرفَانَ فَافْنَ عَنِ الْوَرَى
وَعَنْ كُلِّ مطْلُوبٍ سِوَى الحَقِّ تَظْفَرُ
تَرَى الحقَّ فى الأشيَاءِ حِينَ تَلَطَّفَتْ
فَفِى كُلِّ مَوْجُودٍ حَبِيبِىَ ظَاهِرُ

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : وتصحيح العبودية ، بملازمة الفقر ، والضعف والذل لله تعالى . وأضدادها أوصاف الربوبية فما لك ولها ؟ فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه ، وقل من بساط الفقر الحقيقى : ياغنى من للفقير سواك ، ومن بساط الضعف الحقيقى : ياقوى من للضعيف سواك ، ومن بساط العجز الحقيقى : ياقادر من للعاجز سواك ، ومن بساط الذل الحقيقى : ياعزيز من للذليل سواك ، تجد الإجابة كأنها طوع يدك :

و (اسْتَعِينُوا بِالله وَاصْبِرُوا)[١] ، (إنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ)[٢] .

ولا يصح التحقق بالوصف حتى يتعلق بأضدادها من مولاه ، فلا يلتجئ فى فقره ولا عجزه ولا ضعفه إلى أحد سواه .

روى أن بعض الملوك قال لبعض الفقراء : ما يكون لك من حاجة فارفعها إلىّ ، فقال له الفقير : قد رفعت حوائجى لمن هو أقدر منك ، فما أعطانى منها رضيت به ، وما منعنى منها رضيت عنه ، فقال له : ولا لك حاجة عندى ؟ قال : بلى ، قال : وما هى ؟ قال : لا ترانى ولا نراك وأنشدوا :

مَلَكْتُ نَفْسِى وَكُنْتُ عَبْدًا فَزالَ رِقِّى وَطَابَ عَيْشِى
أَصْبَحْتُ أَرْضَى بِحُكْمِ رَبِّى إنْ لَمْ أَكُنْ رَاضِيًا فَأَيشِى

فهذا هو التعلق بوصف الربوبية ، والتعزز بالله الذى لا يفنى عزه . قال الله تعالى : (وَلله العِزَّةُ وَلرسولِهِ وللمُؤْمِنِينَ)[٣] . ومن تعزز بالله ذل له كل شىء .

وقد حج شيبان الراعى مع سفيان الثورى ، فلما كانا فى البرية عرض لهما سبع ، فأخذ سفيان خارج الطريق ومضى إليه شيبان ، ثم عرك أذنه فلم يزد أن حرك ذنبه وبصبص وانصرف ، فقال له سفيان : ما هذا ياشيبان ؟ فقال له : لو شئت أن أركبه إلى مكة لفعلت .

وكانت عجوز تأتى كل يوم لبيت السرىّ السقطى فتكنس بيته وتسوق له بعض القوت ، فسئل من هى ؟ فقال : الدنيا سخرها الله لى لما زهدت فيها ، وفى هذا المعنى ورد الحديث :

« يَقُولُ الله تَعَالى للدُّنْيا : يَادُنْيَا اخْدُمِى مَنْ خدمنِي ، وَأَتْعبِى مَنْ خَدَمَكِ » .

وقال إبراهيم بن أدهم : من طلب الفقر استقبله الغنى ، ومن طلب الغنى

---

(١) الأعراف : ١٢٨ . (٢) البقرة : ١٥٣ . (٣) المنافقون : ٨ .

استقبله الفقر ، والغنى هو الغنى بالله .

وقال سهل رضى الله عنه : لم يشم رائحة اليقين من ركن لغير الله . وقال أبوتراب : رأيت شابًّا فى البادية يمشى بلا زاد ، فقلت فى هذا الموضع بلا زاد ؟ قال : لست أرى غير الله ، فقلت اذهب الآن حيث شئت . وقال إبراهيم الخواص : لقيت فقيرًا فى البادية فقلت له : إلى أين ؟ فقال : إلى مكة ، قلت : بلا زاد ولا راحلة ؟ فقال : الذى يمسك السموات والأرضين ويحفظهما لا يعجزه قوتى بلا سبب ولا علاقة ، فقلت : صدقت ، ثم رأيته بعد ذلك فى مكة وهو يطوف ويقول :

يَاعَيْنُ سُحِّى أَبَدَا يَانَفْسُ مُوتِى كَمَدَا
وَلَا تُحِبِّى أَحَدًا إِلَّا الْإِلٰهَ الصَّمَدَا

فلما رآنى قال لى : مازالت على ضعف يقينك ؟ فقلت لا ، بل أعلم أن الله على كل شىء قدير اهـ . هذا آخر الباب التاسع عشر .

وحاصلها : أن العارفين ربما دهم الأدب على ترك الطلب ، اكتفاء بعلم الله ، إذ لا يذكر إلا الغافل ، ولا ينبه إلا الساهى وتعالى الله عن الأمرين علوًّا كبيرًا ، فإذا نزلت بهم فاقة أو شدة لم يسألوا رفعها ، بل فرحوا بها وجعلوها مواسم وأعيادًا لما يجدون فيها من المزيد ، وما يهبّ على قلوبهم من نسيم التوحيد والتغريد ، وهى المواهب الربانية ، والعلوم اللدنية ، فتحققوا بأوصافهم وأمدهم بأوصافه ، فصاروا فى الظاهر عبيدًا وفى الباطن أحرارًا ، فى الظاهر فقراء ضعفاء أذلاء وفى الباطن أغنياء أقوياء أعزاء .

وهذه هى الكرامة العظمى دون الكرامة الحسية كما أشار إلى ذلك فى أول الباب الموفى عشرين ، فقال رضى الله عنه :